أنسجةٌ أرضيّةٌ وأحلامٌ وطنيّةٌ

... وعندما قمت لأرحل، تربّصَتْ بجسمي وهمست في أذني: "لا ترحلي."...

كان يومًا مشمسًا من أيّام شباط "اللّبّاط"، فكما تقول أمّي: "شباط إذا شبط ولبط، ريحة الصّيف فيه." ودائمًا ما أنتظر شباط و"لبطاته" الّتي تعيد لنا شمس الأمل والدّفء على أحرٍّ من الجمر. ولكن، لم أتوقّع في حياتي أن يأتيَ يومٌ أودّع فيه آخر شباط لي في لبنان، وأن تصبح "لبطاته" هذه ومعانقات شمسه الدّافئة لجسمي من أحرّ ذكرياتي على أرض الوطن. لذلك، لم أسمح لنفسي بالتّباطؤ أبدًا وانطلقت إلى "حرج بيروت" لألمّ شملي بشمس شباط لبنان للمرّة الأخيرة في حين طويل.

ودائمًا ما تقودني قدميَّ إلى "حرج بيروت" كونه أقرب جنّة خضراء من منزلنا، فيستقبلني بفرشٍ من السّجّادات الزّمرّديّة وكأنّ الطّبيعة ترتدي أزهى فساتينها لتنال إعجابنا! فكيف أوصل لها مدى إعجابي بكلّ رداءاتها؟! وهل تعرف يا تُرى كم أنّي أرتقي بأشكالها وألوانها؟! وكيف أحمد الله وأشكره على بديعه في تكوينها؟ آه، آه لو شعرت الطّبيعة بمثقال ذرّةٍ من العشق الّذي

أكنّه لها، لكانت أخذتني طيرًا حرًّا في سمائها، شجرةً شامخةً في غاباتها، سنجابًا صغيرًا يقفز ويركض في أحضانها، نحلةً تتنقّل بين أزهارها، أو حتّى أرّضتني في أعماقها، ويا لحظّي إن تأرّضت فعلًا في أعماقها!

دخلت الحرج من كوّةٍ صغيرةٍ في سواره، ومشيت حتّى عيّنت أكثر بقعة استراتيجيّة فيه، وتلك هي الّتي تصبّ فيها أشعّة الشّمس مباشرةً، وتكون بعيدةً نسبيًّا عن ضجيج الأطفال وركلات كراتهم. ثمّ استلقيت على الأرض ووجهي للسّماء، وتبسّمت.

بات هذا الفعل البسيط واحدًا من عاداتي المقدّسة مؤخّرًا: أن أستلقي على الأرض وأن أشعر بارتباطي الوثيق بها. وصفٌ قد يكون غريب لما يعرف فعليًّا بـ"التّأريض"، وذلك يعني الاستلقاء على الأرض وتسليم النّفس لها حتّى تتّصل الرّوح بالأرض الأمّ، وتستشعر أنّها خُلقت منها لتعيش عليها، ثمّ ترجع إلى باطنها. وفي ذلك عودة توازن النّفس وبلورةٍ لغايتها. وأنا، وجدت نفسي في التّأريض، لمست شيئًا من كياني في الباطن العميق، سمعت صوتًا يناديني ولبّيت النّداء، فوجدت الأرض الأمّ تعانقني، وكيف لي أن أرفض هذا العناق الكونيّ؟!

أخذت أتقلّب مع حركة الشّمس وأنا أشاهد الحشرات على العشب الأخضر في تارةٍ، وأناظر أشجار الصّنوبر وأستمتع برائحتها في أخرى. مناظر أخّاذة لم تفشل مرّة في أن تأسرني بسحرها في حرج بيروت، ورغم أنّها دائمًا ما تستقبلني بأرحب صدرٍ وتحتضنني بأحنّ قلبٍ، إلّا أنّني اليوم سأخيّبها. لن أتمكّن من ردّ جميلها ولن أصون عشرتها كما لطالما رسمت في خيالي. فتلك الفتاة الّتي لم تتقبّل يومًا فكرة الهجرة والغياب عن الوطن هي ذاتها الّتي حجزت بيدها تذكرة ذهاب بلا إياب إلى بلاد الغربة. أعترف لأرضي بأنّني سأسمح لغيرها بأن يحتضنني، وأنّني سأحتضن غيرها. سأستلقي على عشب حدائق غريبة، وسأروي لها عن ما يفرحني و ما يزعجني، سأخبرها بمشاهداتي الغريبة، وسأطلب من ربوعها أقساط كثيرة من الرّاحة، ولكن هل ستجيبني؟ هل ستعطيني الرّاحة الّتي أريدها، بل الّتي أحتاج إليها؟ هل ستغمرني بدفئها وتملي عليّ الألحان الّتي أحبّها؟ هل ستقبلني شجرةً شامخةً في غاباتها أو نحلةً تتنقّل بين أزهارها؟! أتساءل وأنا على يقينٍ تامٍّ بأنّ وجهتي الجديدة لن تحمل أيًّا من ذلك، فمغادرتي لأرض الوطن تعني التّجرّد من كلّ هذه الأحاسيس والعواطف الرّقيقة. أعترف بذلك وقلبي بالغصّة يختنق، فأنا لم أختر الهجرة بقلبٍ راضٍ، ومن ذاك الّذي يرضى بالابتعاد عن الأرض الأمّ، ولكنّ الهجرة فرضت نفسها عليّ. ظروف البلد الرّاهنة سمحت للهجرة بأن تنتقي أكثر الطّاقات الشّبابيّة حيويّةً وإنتاجيّةً، وأن تختطفهم إلى ما لا عودة حتميّة منه.

بقيت على هذه الحال حتّى أشرفت الشّمس على المغيب وبدأت أسراب العصافير تتوجّه إلى أعشاشها على أغصان أشجار الصّنوبر للمبيت، فكان عليّ أن أقاطع استجمامي الأخير وأن أعود إلى المنزل، مودّعةً الحرج وشباط وشمسه و"لبطاته" بجزعٍ شديد. قبّلت أرض لبنان للمرّة الأخيرة، وعندما قمت لأرحل، تربّصَتِ الأرض بجسمي وكأنّها مدّت يديها لتمسك بي، وهمست في أذني: "لا ترحلي."

تلفّتُّ ونظرت حولي لأتعرّف مصدر الصّوت، وإذ بها تقول لي: "إنّها أنا، الأرض."

فأجبتها بدهشةٍ: "الأرض؟! وكيف لكِ أن تتكلّمي؟!"

- آه يا ابنتي، أنا الّتي أتكلّم، ولكن لا أحد يسمعني.

- ما بكِ أيّتها الأرض؟ لما صوتكِ يرتجف؟

- أنا متعبةٌ كثيرًا.

- وما الّذي يتعبكِ هكذا؟

- آه يا ابنتي! كلّ أبنائي يهجرونني، وأنا أرضهم الأمّ، أرض لبنان السّماء. لقد أصبحت وحيدةً. لم يعد شيئًا كما كان. لم يعد لبنان كما تركوه أجدادكم.

- معكِ حقّ، لم يعد لبنان كما كان، ولكنّه مازال يتحلّى بالكثير.

- أيّ كثير تتّحدّثين عنه؟ أهو الكثير الّذي ستبقيْن من أجله؟! سألت بسخرية.

- أرجوكِ لا تُثقلي همّي أكثر، فأنا بالكادِ أمسك دموعي.

- لا بأس بدموعكِ وأنا أحتضنكِ يابنتي، ولكنّ الدّموع الّتي ستذرفينها بعيدًا عنّي هي الّتي تشغل بالي. فتلك، تلكَ دموعٌ حارقةٌ لن تطيقها ابنة الأرض الوطنيّة أبدًا.

حينها، بدأت بالبكاء كطفلةٍ تتألّم، وكان قلبي يحترق من الوجع والأسى. ضربتني الأرض ضربًا مؤلمًا بكلماتها، وتابعت حديثها.

- لبناني السّماء ليس كلبنانكم أنتم المستهونون به.

- أعوذ بالله أن أكون من المستهونين بلبنان. أنا فقط أريد أن أومّن لنفسي مستقبلًا أفضل.

- حتّى وإن غادرتِ بألمٍ وأسى، فإنّ عدم بقائك لبناء لبنان الغد يعني الاستهوان بمصير الوطن. وإن كان هذا يرضيكم، فاذهبوا ولا ترجعوا، لكم لبنانكم ولي لبناني.

وما إن قالت الأرض هذا حتّى انشقّت على نفسها، وخرج منها طيفٌ أبيضٌ وقال: "ارتاحي يا أمّي، لعلّي أرتاح أيضًا."

من أنتَ؟! سألته بذعرٍ شديد.

- أنا جبران. أجاب بثقة.

- من جبران؟

- أنا جبران خليل جبران.

- وكيف حضرت؟ من أين جئت؟

- لقد جئت أرى ماذا فعلتم بلبنان، فهل حافظتم على قطعة السّماء الّتي بين يديكم؟ هل زدتم جمالها وحللتم معضلاتها؟

- نعم. أجبته وأنا أخفي دموعي وأحاول أن أرسم ابتسامةً على وجهي، فلم أرد أن يعرف أنّني سأترك الوطن. انظر إلى جمال طبيعة بيروت! انظر إلى الأشجار الشّامخة والطّيور اللّافتة والسّماء الصّافية!

- وكم من حديقة كهذه يوجد في بيروت؟ ألم تقضوا عليها كلّها واستبدلتموها عمرانًا يكاد يعلو الأشجار شموخًا؟ ماذا عن معضلات لبنان؟ هل حللتموها؟

- بالله عليك لا تسألني عن معضلاته! فما زال كما تركته، لا وبل أسوأ. أخبرته وقد انفجرت في البكاء، فلم يعد بإمكاني أن أتحمّل. أضحك على نفسي وأنا أخبر الأرض بأنّ لبنان ما زال يتحلّى بالكثير! يا لسخافتي! ما زالوا يتنازعون في أغراضهم ومصالحهم، وما زال الشّعب ينتظر حتّى تعيد الأيّام لبنان أيّام زمان.

- لكم لبنانكم ومعضلاته، ولي لبناني وجماله. لكم لبنانكم بكلّ ما فيه من الأغراض والمنازع، ولي لبناني بما فيه من الأحلام والأماني.

- وأنا وجيلي لدينا أحلامٌ وأمانٍ أيضًا، فلماذا تلومنا على حال لبنان؟

- صحيح، أنتم أحلام وأماني لبنان، ولكنّ لبنان ليس حلمكم وأمنيتكم. أنتم تستغنون عنه وتستسهلون رمي الواقع وراء ظهوركم، وتبدؤون حياةً جديدة في بلاد الغربة. أين لبنانكم من أحلامكم؟ ألا نصيب له؟

- ولكن أمامنا مستقبل ينادي، فهل نظلُّ، ونغرق في كومة الضّياع والمعضلات والنّزاعات هذه؟ هذا لا يعني أنّنا لا نحبّ الوطن، حاشانا، بل إنّنا نعشق أرضه، ولكنّ البقاء غير مأهول، غير مقنع. وكما قلت حضرتك في كتابك: "لكم لبنانكم فاقتنعوا به، ولي لبناني وأنا لا أقنع بغير المجرّد المطلق."

- لا تقنعين إلّا بلبنان المجرّد المطلق، ولكن لا تبقين لتصنعي ذلك؟ هذه قناعة فانية تشبه كلام السّياسيّين حول لبنان الّذي سيصنعه كلٌّ منهم.

- ها قد قلتها أنتَ. لبنان عقدة سياسيّة تحاول حلّها الأيّام، ولا أظنّ أنّ أيّامي، مهما كانت كثيرة، ستشهد هذا الحلّ.

- حاولي إذًا أن تنظري إلى لبناننا، لبنان التّلول المتعالية بهيبةٍ وجلال نحو ازرقاق السّماء.

- ولكنّ لبنان مشكلة دوليّة تتقاذفها اللّيالي.

- لا، بل هو أوديةٌ هادئة سحريّة تتموّج في جنباتها رنّات الأجراس وأغاني السّواقي.

- ولكنّ لبنان موظّفون وعمّال ومديرون، وفرصنا كشبابٍ أفضل في الخارج.

- لبناني الّذي أحلم، تأهّب الشّباب، وعزم الكهولة، وحكمة الشّيخوخة، فلا تحرمونا ذلك.

- ولكنّ لبنان طوائفٌ وأحزاب...

فقال وهو يشير إلى صبيةٍ يتسلّقون الصّخور: "لبناننا صبيةٌ يركضون مع الجداول، ويقذفون الكرات في السّاحات. ثمّ أضاف: "لكم لبنانكم ولي لبناني. لكم لبنانكم وأبناؤه، ولي لبناني وأبناؤه. وأنتم يا جيل الغد أبنائي."

- ومن هم يا ترى أبناء لبنانهم؟ ألن يسكتونا كما أسكت آباؤهم آباءنا؟

- "هم الّذين وُلدت أرواحهم في مستشفيات الغربيّين، ولكن أنتم وُلدت أرواحكم في أحضان الوطن. هم الّذين استيقظت عقولهم في حضنٍ طامعٍ يمثّل دورًا أريحيًّا، وأنتم استيقظت عقولكم في حضنٍ عفيفٍ يحصّل لقمة عيشه بعرق جبينه. هم تلك القضبان اللّيّنة الّتي تميل إلى اليمين وإلى اليسار، ولكن بدون إرادة، وترتعش في الصّباح وفي المساء، ولكنّها لا تدري أنّها ترتعش، وأنتم، وبالرّغم من أنّكم سجناء هذه القضبان، آمنين مشتدّين ثابتين راسخين لأنّكم الجيل القادر على كسر تلك القضبان. هم الأشدّاء الفصحاء البلغاء، ولكن بعضهم لدى بعض، والضّعفاء الخرسان أمام الإفرنج، وأنتم المثابرون المناضلون المدافعون بالحقّ عن الحقّ أمام أيٍّ كان من يكون. أنتم الّذين تمثّلون العزم في صخور لبنان، النّيل في ارتفاعه، العذوبة في مائه، والعطر في هوائه. عيشي حياةً تقولين بعدها: "إذا ما متُّ تركت وطني أفضل قليلًا ممّا وجدته عندما وُلدت." عيشي وجيلك حياةً تقولون بعدها: "لقد كانت حياتي قطرةً من الدّم في عروق لبنان، أو دمعةً بين أجفانه، أو ابتسامةً على ثغره." قد تكونون وليدي الأكواخ، ولكنّكم تموتون في قصور العلم. أنتم هم أبناء لبنان. أنتم هم السُّرُج الّتي لا تطفيها الأرياح، والملح الّذي لا تفسده الدّهور. أنتم السّائرون بأقدامٍ ثابتة نحو الحقيقة والجمال والكمال.

صفنت أفكّر بكلّ ما قاله، وقد أحيا كلامه في داخلي عزمًا شديدًا، ثمّ قلت: معك حقّ. نحن أبناء لبنان الّذي يحتاجهم، ولأنّ "نصبة الزّيتون الّتي يغرسها القرويّ في سفح لبنان لأبقى من جميع أعمالهم ومآتيهم. والمحراث الخشبيّ الّذي تجرّه العجول في منعطفات لبنان لأشرف وأنبل من كلّ أمانيهم ومطامحهم"، لن نرحل. سنبقى متأرّضين بأرضنا الأمّ الجبّارة، وسنعيد وضع الحروف على اسم لبنان ليشرق غده نورًا ومجدًا. ولكن، هل سيسامحني؟

- من هو؟

- لبنان.

- لماذا تتساءلين في ذلك؟

- لأنّني فكّرت لوهلةٍ أن أهاجر وأتركه، حتّى أنّني حجزت التّذكرة بيدي. أشعر بذنبٍ كبير. ذنبي هذا لا يُغتفر.

- حنين، لبنان يحبّكِ ولا تشكّي يومًا في ذلك، فأنتِ ابنته الّتي تعشق ترابه وتتلذّذ بمعانقة أرضه. أجيبيني ألا يسري حبّ لبنان في دمِكِ؟

- والله إنّ لبنان للدّم الّذي يسري في عروقي.

- الله! وتسألين إن كان لبنان سيسامحكِ؟! لبنان يحبّ كلّ أبنائه يا حنين وإن تركوه، فهو الأمّ الحاضنة الّتي تقف ويداها مفتوحتان تنتظر عودة أبنائها.

- وإن لم يأتوا؟

- سيأتون. سيأتون كما أتيْتِ أنتِ، يُضمّدون جرح لبنان العميق الّذي خلّفه كلّ مهاجر مستهون. سيأتون وبيدهم أعلى الشّهادات... سيأتون وقد رفعوا اسم لبنان عاليًا وجعلوه يلمع بانجازاتهم... سيأتون يكتبون بأقلامهم تاريخ لبنان الّذي سيعتزّ به أولادهم... سيأتون يكلّلون الأرزة بنجاحاتهم... سيأتون يضعون النّقاط على أحرف العزّ والأصالة والعراقة...سيأتون يضعون حدًّا للفساد، سيجدون حلًّا للمعضلات، وسيكرّسون لبنان للجمال... سيأتون ويجلسون على المقاعد الّتي انتظرت نزاهتهم طويلًا حتّى يعيدوا لنا لبناننا، ويعرّفون به في قاموس العالم "لبنان الّذي نحلم".

- لقد أحييتَ الشّغف في قلبي وكأنّني وُلدت هذه اللّحظة.

ثمّ أخرجت من جيبي تذكرة الطّيّارة ومزّقتها، فابتسم جبران وقال: دمتِ للبنان من المخلصين يا حنين. سنبقى على وعدنا حتّى موعدنا.

- أيّ موعد؟ متى وأين؟! سألته بذهول.

- في لبنان السّماء. أجابني وطيفه يرتفع هويدًا هويدًا حتّى اختفى تمامًا وكأنّه الرّياح.

وبهذا، انتهى حوارٌ لا أعرف كيف بدأ، ولكنّني أعرف حتمًا أنّني بعده لم أعد حنين ذاتها. سمعت نداء جذوري الوطنيّة في الأرض الأمّ، وليس فقط جذوري الإنسانيّة فيها. أصبحت متربّصة بوطني، لأنّني إن لم أفعل، سيتربّص أولئك بمقاعدهم أكثر وأكثر.

مشيت إلى المنزل وكُلّي دهشة، فقد كنت مسافرةً غدًا لأغلق ملفّ لبنان وأضعه على الرّفّ في قلبي، وأنا أوقن أنّني كنت لن أفتحه بعدها أبدًا. والآن، أنا عائدة وفي نفسي شعلة وطنيّة لا تنطفئ. ربّاه! كيف تحوّلت زيارة الحرج الأخيرة والاستلقاء

تحت شمس شباط لبنان لأودّعها إلى نِساجٍ أرضيّ أحيا روحي وأعاد توجيه أحلامي الوطنيّة؟ بدا لي أنّ الوجهة كانت وستظلُّ دائمًا لبنان، ولكنّنا لم نكن نراها بوضوحٍ من خلفِ تلك القضبان اللّيّنة. وهل يُعقل لنا أن نهرب من سجن هذه القضبان كالضّعفاء في حين يمكننا أن نحطّمها ونعلن حرّيّتنا وبداية عهدنا. جبران مقتنع بلبنانه وأبنائه، وفي قناعته عذوبة وطمأنينة، وحان الآن أن نثبت قناعته حقًّا.

حنين فرج